محاضرة رقم 10

هنـــــري برغسون (1859- 1941)

يعتبر العصر الحديث، العصر الذي اتسعت فيه التطورات العلمية بشكل لافت، إذ اجتاحت المشهد المعرفي، وبخاصة في مجال العلوم الطبيعية التي احتضنت تطبيق المنهج العلمي المبني على الملاحظة والتجريب، هذه التحولات العلمية كان لها أثرها المباشر في نشوء الفلسفة الوضعية التي أخذ "أوجست كونت" يرسي دعائمها، فكان ظهور الفلسفات العلمية إيقاعها المنهجي في سعيها إلى تبديد التفسيرات الروحية والميتافيزيقية، إذ تزامن ذلك، مع عودة النظريات المادية، وتصاعد لافت لنظرياتها في تقديم تفسير علمي جديد للكون والتمكين من صياغة قوانين علمية، كل هذه التداعيات كانت حافزا لبرغسون، فما طبيعة الموقف النقدي الذي قدمه حيال هذه الاشكالات؟

1-برغسون في سياق المرحلة المعاصرة:

من الضروري تقدير أهمية التأثير الذي أحدثه "هنري برغسون" في مسار الفلسفة الغربية المعاصرة وفي مجريات القرن العشرين، ليس من باب تلك التصورات التي نشأت في أحضان تجديد المنحى الفكري الذي تسعى الفلسفة الروحية إلى تأسيسه، ووجود إرادة توطيد لمفاهيمها وتوسيع المجال المعرفي ورواج الفلسفات الفينومينولوجية والوجودية والتأويليات التي فتحت أبوابها على مجالات تشييد الوعي الفلسفي.

في ظل هذه الألجواء المفعمة بالتحولات الفكرية المتسارعة، انخرط"برغسون" في ملامح الثقافة الروحانية مبشرا في ذلك، محاولة كبح أذرع التمدد المادي المفرط، فبدأ يباشر المسح النقدي للأسس الابستيمولوجية التي تمس عمق المنظومات المعرفية الحديثة التي تناغمت مع الممارسات العلمية والتقنية، فبدا له ضرورة التحول إلى نقدية روحية التي تمكن من إحداث مجاوزة فعلية للمنحى العقلي، والانقلاب على كل التوجهات الميكانية التي تريد حصر الجوانب النفسية في ما هو مادي .

لقد أدى هذا الموقف النقدي إلى الحديث عن الديمومة التي تمكنت من خلخلة التصور الحسابي الآلي لممكنات العقل الذي تظهر منه الممارسات الهشة في فهم الصيرورة السطحية للحركة التي يقوم عليها الوجود، مما يعطي انطباعاً أولياً، بأن العلم بدا عاجزاً عن استيعاب المعنى العميق للوجود الذي تتجلى فيها معالم الروحانية في أسمى معانيها.

في حين يأتي الحدس ليسكن الباطن ويحايث الذات لتنطبق معها، على أساس أن الممارسات المنهجية للعقل الحديث التي تفصل ذاتها عن الموضوع، والنظر إليه من الخارج، مما يعني أن الحقيقة قد تتعرض إلى الحجب وراء التعلق الخارجي بالموضوع المدروس، فهذه الخلفيات التي تريد البرغسونية تشخيصها، تدخل في أواصر شديدة المقاربة مع طموحات مدرسة فرانكفورت التي اجتهدت في تجديد مسار العقل الحديث ونقد التحولات المعرفية التي حصلت له.

وعلى هذا الأساس تصبح عملية التغير خاضعة للعقل الذي يعمل على فهم عمقها وإدراك محدداتها العلمية، فهذا الفهم يعبر عن المجال الذي شغف "برغسون " بمعرفته في المرحلة المعاصرة، وتغيير وجهة العمل الفلسفي، معتقداً في ذلك أن الفلسفات المادية قد حادت عن فهم الواقع وعمق الحياة الانسانية، لذلك ترسخت لديه القناعة بأن العناية بالحياة الباطنية، بإمكانها أن تفضي إلى إعطاء الأولوية للشعور الذي يعد أساس الحياة النفسية، هذا الشعور يهدف إلى تجسيد مقاصد الحقيقة، ومن هنا سعى إلى تقديم نظرة مجددة للحياة والواقع، مخترقا في ذلك التصورات العلمية والمادية التي حصرت أفق تفكيرها في التفسيرات المادية والمكانية للأشياء، ونفي فكرة الزمان التي تعبر عن الحياة الانسانية والتي تتجاوز بدورها حدود المكان.

2-علاقة الزمان بالمكان:

اتسم العصر الذي جاء فيه "برغسون" بتفسير الزمان على أساس المكان، وقد كانت مقولة الزمان والمكان محل خلافات كبيرة، وقد تعلرضت للنقد من قبل "كانط" الذي أراد إعادة تفعيل الفهم العلمي لهما ومجاوزة التصور الفلسفي، على ضوء إقامة نظرة جديدة تخالف الأساس الفكري الذي لجأ إليه العلمانيون والماديون حين جنحوا في تفسيرها ضمن مسالك الرؤية المادية البحتة.

لقد اهتدى"كانط" حسب "برغسون" إلى مقولة المكان فكرة الزمان لكنه أضل السبيل عندما تصور هذا الأخير (الزمان) يمتد في المكان، وانطلاقا من هذا الأساس ذهب الفيلسوف الفرنسي إلى أن تفسير كانط لم يكن مقنعاً"[1].؛ لأنه مزج بين المقولتين ومن ثمة راح يعتقد أن المشاكل الميتافيزيقية القائمة في عصره كانت وليدة هذا الخلط . يقول في هذا الصدد:" إن الميتافيزيقا يرجع العهد بها إلى اليوم الذي أعلن فيه زينون الإيلي ضروب التناقض الذي ينطوي عليها القول

[1] مراد وهبة، المذهب في فلسفة برغسون، دار المعارف،القاهرة، مصر ط1، 1960، ص 45

بالحركة والتغير، على نحو يتصورهما العقل"[1] ، وبهذا أراد "برغسون" تغيير جوهر هذه المفاهيم عن الزمان والمكان .

لقد كان لهذا التصور القاعدي الجديد للزمان والمكان أثره الفعال في البحث عن مفهوم الديمومة، فأحدث "برغسون" بذلك ثورة عارمة انقلب فيها على التفسيرات التي قدمها علماء البيولوجيا في العديد من المجالات حين حصروا فهمهم الضيق على تصور الأحداث تصورا ميكانيكيا، تم فيه اخضاع عملية التطور إلى القياس والاحصاء، ومنه وصل إلى قناعة مفادها أن تغلغل التصورات الرياضية والعددية إلى البحث الفلسفي، قد شوه التفسيرات الحقيقية للزمان والمكان، وهذا ما يشكل عائقا حقيقياً عن معرفة الحودث في صورتها الطبيعية.

وفي هذا السياق، اعتبر "برغسون" أن الفلسفات المادية التي قدمت التفسير الآلي للأجسام والحركة والجوانب الكيميائية والجزيئات أي كل مايخص مجال الطبيعيات، واعتقاد هؤلاء أمثال "هربرت سبنسر" و"هيبوليت" والتي تذهب إلى القول بأن الاحساسات الانسانية تمثل وحدات إحساسية إذا ما انضمت إلى بعضها البعض كون مختلف الاحساسات النوعية"[1] ، انطلاقا من هذا التصور، أدرك" برغسون" أن العلم الطبيعي لا يدرس الحركة ، وإنما هو يدرس المواقع المتتالية التي تقع فيها الأجسام ، كما أنه لا يدرس القوى ، وإنما هو يدرس نتائجها ومعلولاتها، وهكذا فإن صور العلم عن العالم تفتقد في رأي "برغسون" الكلية إلى الحركة (الدينامية) وإلى الحياة. أما الزمان على النحو الذي يدركه عليه العلم، فما هو في نهاية الأمر إلا مكان في الواقع ، وحين يزعم العلم أنه يقيس الزمان، فإن الذي يقيسه إنما هو في الحق المكان.

3-الحدس والديمومة:

يحتل الحدس مكانة متميزة في سلسلة المعارف التي تحصل على مستوى النفس أو العقل، لذلك، "لا يختلف الحدس من الناحية الاصطلاحية عن المفهوم اللغوي له، فهو معرفة حقيقية بيّنة، مهما كانت طبيعتها، تستعمل مبدئياً للتركيز على الاستدلال النظري، وتدور حول الأشياء وحول علاقاتها أيضاً، ومنه نقول، فكر حدسي في مقابل فكر استنتاجي وهو الذي يرى توليفا والذي ينشأ بدلاً من الاستدلال العقلي بتحليل وتجريدٍ"[2] ، وبهذا فهو يحظى بإقبال كبير من قبل الفلاسفة والعلماء في معرفة الحقائق ومختلف الموضوعات.

---

[1] Bergson, Pensée et Mouvant, Ed, PUF , Paris, 1946, p.22

[1] أندريه كريسون، برغسون، حياته فلسفته ، ترجمة نبيه صقر، منشورات عويدات ، القاهرة، مصر (د،ت) ص19

[2]- André Lalande : vocabulaire technique et critique de la philosophie

وبهذا تخضع المعارف لسلم تراتبي، وعليه، اختلفت النظرة التي يتمتع بها الحس المشترك من جهة والعلم من جهة أخرى، أما "برغسون" فيذهب إلى مخالفة هذا الادعاء، ويؤكد أنه بإمكاننا أن نكتشف في أنفسنا بعد جهد وتعب من غير شك، هذه الحقيقة التي تتميز بقوة مكثفة كيفية، وهي تتكون من عناصر غير متجانسة على الاطلاق، ولكنها مع ذلك يتداخل بعضها والبعض إلى درجة أنه يصعب أن نميز كل عنصر منها بذاته، أخيرا فإن هذه الحقيقة الداخلية تتمتع بالحرية. وهي ليست مكانية، ولا مما يمكن عدُّه بالحساب، والواقع أنها تدوم، بل إنها ذاتها ديمومة خالصة، ومن هنا حصل لها الاختلاف عن حقيقة الزمان والمكان على النحو الذي تتصوره العلوم الطبيعية على ضوء أن هذه الحقيقة الداخلية لها طبيعتها الخاصة، تشكل وحدة لا تقبل التجزئة، وهي دفعة ووثبة وصيرورة لا يمكن قياسها. هذه الحقيقة في صورتها الكلية لا يمكن حصرها، بل هي من حيث المبدأ في سيلان دائم لا تتوقف، تصير باستمرار.

إن الادراك المتعلق بالديمومة ، فإنه يقوم على فكرة الحدس لأنه بالحدس نعرف الديمومة معرفة مباشرة ومن باطننا، فتبين من خلال هذا أن الحدس يتمتع بجموعة من الخصائص جعلته يختلف عن العقل أو الذكاء ، فيدفع الانسان إلى التأمل وبالتالي ينفصل عن خدمة الحياة العملية، لذلك يصبح موضوع الحدس هو المتحرك، هو العضوي، ما هو في حركة وتطور، إنه وحده الذي بموجبه تدرك الديمومة.

4-نظرية المعرفة وعلم النفس:

بما أن المنهج الحدسي قد أثبت نجاعته في رصد مختلف الحقائق، فإن العمل به في نظر "برغسون" يأتي في مجال إثارة المشكلات النظرية، مؤكداً في ذلك أن الادراك الحسي والذاكرة وظيفتان عمليتان تماما وهما في الواقع أساس الفعل والعمل، بينما الجسد، يمثل مركز العمل والفعل وينتج عن هذا الاعتبار، أن الادراك الحسي يقدم لنا معارف جزئية، وبالتالي لا يصل إلا إلى جزء وحسب من تشخيص الواقع، وما الادراك الحسي إلا جمع انتقائي من الصور الضرورية من أجل أداء غرض عملي.

ومن هذه الزاوية، تعتبر الأشياء (الموضوعات) التي يتكون منها العالم، هي صور حقيقية، وليست كذلك كما تدّعي المثالية حين حصرتها في عناصر الوعي، كما حادت الواقعية و"كانط" حين وضعوا فكرة أن المكان المتجانس يتوسط الوعي والواقع الخارجي، وهذا في نظره يعتبر مخالفاً لمتلطبات معرفة الحقيقة، لأن المكان ما هو إلا شكل حدسي يتناسب مع اجراءات العمل الانساني، وبهذا

كان تصور "برغسون" لنظرية المعرفة محكومة بأسباب مدعمة بنظرية سيكولوجية محددة.

إنطلاقاً من هذا الموقف، يظهر "برغسون" رافضاً للنزعة المادية التي استمدت قوتها من واقعة أن الوعي تابع للجسم، وهو زعم خاطئ ، لأنه لا توجد صلة قائمة بين الظواهر النفسية والظواهر الفيزيزلوجية ولا حتى صلة التوازي التي لا يمكن البرهنة عليها، ويستدل "برغسون" على هذا، في نشاط الذاكرة الخالصة.